دار الكتب والوثائق القومية
القسم الأدبي

ديوان
المعتمد بن عباد
ملك إشبيلية

جمعه وحققه

الدكتور / حامد عبدالمجيد　　　　الدكتور / أحمد أحمد بدوى

راجعه

الدكتور / طه حسين

الطبعة الثالثة

(١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م)

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

المعتمد بن عباد، محمد بن عباد، ١٠٤٠ ــ ١٠٩٥.
ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية/ جمعه وحققه حامد عبد المجيد، أحمد أحمد بدوى؛ راجعه طه حسين.
ـ ط ٣.ـ
القاهرة: دار الكتب المصرية ، ٢٠٠٠.
١٣٦ص ؛ ٢٨سم.
يشتمل على إرجاعات بيليوجرافية
تدمك ٣ ـ ٠١٨١ ـ ١٨ ـ ٩٧٧
٦و ٨١١

الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
جميع الحقوق محفوظة
١٩٥١م

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب
جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية
١٩٩٧م

الطبعة الثالثة بمطبعة دار الكتب
جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية
٢٠٠٠م

ديوان

المعتمد بن عبّاد

ملك إشبيلية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

طبعة الديوان

ولد المعتمد فى مهاد الملك، وعاش أميراً وملكاً، وكان شاعراً مطبوعًا كما كان أبوه المعتضد شاعراً وجدّه شاعراً.

أُغرم بالشعر، وكان شعره صورة للحياة التى عاشها، يترجم به عن عواطفه، ويسجِّل فيه حسَّه ومشاعره. وهى حياة تفيض بالبهجة والسرور فى عهد صباه وشبابه.

ثم تلتوى به الحال فتنقلب تلك الحياة الراضية إلى حياة بؤس وعناء.

وقد أكثر المعتمد من قرض الشعر، ولكنه مع هذه الكثرة لم يدوِّن فى ديوان، ولم يجمعه أحد ممن جاء بعده، وإنما كان متفرقا منثورا فى كتب الأدب وصحائف التاريخ. وتلك كانت مهمتنا.

رغبت أنا وصديقى الدكتور أحمد أحمد بدوى ـ رحمه الله ـ فى أن نجمع ما تفرق من شعر المعتمد ونطيل صحبة العمل فيه جمعًا وتحقيقًا. فاستقينا الديوان من نحو ثلاثين من الكتب والمراجع الأصول، كما يرى القارئ الكريم ذلك فى المقدمة ص ٣٦.

★★★

وشعر المعتمد صورة لحياة أمير أو ملِك، ثم هو من ناحية أخرى جزء من التاريخ، وصورة لأحداث الأندلس فى تلك الحقبة التى أعقبت سقوط الدولة الأموية.

فقد انتهز حكام الأقاليم والأشداء فى المدن فرصة انهيار الدولة، فأقاموا على ما بأيديهم ملوكا وأمراء. وانتهى هذا التجزؤ والانقسام إلى اشتعال الحروب وتسرُّب الفتن بين الإمارات. وبَدَت المدائن مُحتربة متخاصمة، مُتدابرة متنافرة، تحمل فى قيامها عوامل انحلالها. فكان كل أمير من هؤلاء إذا أحسَّ بالقوة أو آنس فى نفسه البأس، صَرَف تلك القوة ووجَّه هذا البأس فى سبيل تحقيق مجده الشخصى. فلا يلبث أن ينقض على جاره، أو يحاول البطش بالذى هو أضعف من جيرانه ليضمه إليه، ويخضعه لسلطانه. فَيَدْرأ الضعيفُ الخَطرَ عنه، فيتحالف مع جار أقوى.

ومضوا على ذلك طوال أيامهم، لا تهدأ الأندلس يوما من اعتقال رُمْح ولا سَلِّ سيف. وعدوهم من الفرنج جاثم يترقَّب. حتى إذا أحسَّ فيهم وهَن القُوَى، ولين القَنا، أخذ يتواثب على هؤلاء المتنافسين فيُغير عليهم واحداً بعد الآخر، ويطوى تلك الإمارات المتصارعة.

★★★

وكان بنو عبَّاد أمراء إشبيلية أهل حنكة سياسية ودهاء وذكاء. وكانت لهم سياستهم الخاصة فى غمار تلك الأحداث التى ألمت بالعصر. واستطاعوا أن يوسِّعوا سلطانهم، حتى غَدَت إشبيلية أقوى الإمارات الأندلسية.

فالقاضى ابن عبَّاد قد استطاع وسط هذه الأعاصير والفتن أن يستقل بإشبيلية. ولم تدركه منيَّته حتى ترك من بعده دولة عريضة تنتظم القسم الجنوبى من الأندلس بجملته.

وتلاه ابنه المعتضد وكان صارما حَديد القلب، بعيد الهمة ذا دَهَاء. وفى تلك الثورات المرهقة والفتن المهلكة، كان المعتضد (قطب رحَى الفتنة، ومنتهى غاية المحنة).

ومن بعده جاء ابنه المعتمد فمضى على ما رسَمَه له أبوه. وساعده حسن الطالع فى الحروب التى شنَّها على خصومه، وعَلَتْ يده على كثير من الأمراء.

وقد واجه المعتمد أحداث عصره فى صبر وقوة وإقدام. والمؤرخون يتحدثون عن صبره وقوته فى خوض تلك المعارك، ويُثنون على شجاعته وثباته واستبساله.

وكان للأحداث الكبرى التى مرَّت بالمعتمد، والحروب الطاحنة التى اشتد أُوارها واستعر لهيبها فى الأندلس (فى الزَّلاقة، وقرطبة، ورُندة والرُّها، وغيرها. تلك الحروب كان لها آثارها البعيدة وصداها العميق فى نفس المعتمد، وكانت كذلك ينبوع فخره فى شعره.

لم يصورها فى شعره كشاعر سمع بها ولم يكن شاهدها، أو كشاعر وقف على ربوة يرقبها من بعيد، وإنما كان المعتمد فارسًا شجاعًا، شديد الاعتزاز بنفسه. يتقدم كتائبه، ويجول فى ميادين القتال فى بسالة وإقدام، شديد الثقة بِصبره وقوة عزيمته.

ثم الْتَوت به الحال، وقلب الدَّهر له ظهر المجنّ فانهزم. ونزل من قصره إلى أسْره. وكان هذا أقوى الآثار عمقا فى نفسه.

فقد اضطر إلى مفارقة وطنه وأهله واقتيد إلى أغمات بالمغرب.

وفى أغمات عاش فى السجن بضع سنين، عاش عيشة سِيْمَ فيها العَنَتَ والظلم ولقى فيها الذّلة والمهانة. فجاء شعره فى هذه المحنة مصوّرا لما يعتلج فى صدره من الهم والغدر، يشكو بَثَّه وحزنه، ويأسى على مصيره.

وبعـد :

فقد كنت أقرأ على أستاذنا الدكتور طه حسين بعضا من شعر المعتمد ابن عباد وكذلك نصوصا من شرح ابن السِّيد البطليوسى لشعر أبى العلاء، عندما كانت لجنة إحياء آثار أبى العلاء تقوم بتحقيقه، وكان من المعجبين بهذا الشرح المحبين له.

فأبدى من الاهتمام وصادق الرغبة فى أن نجمَع ما تفرَّق من شعر المعتمد فى ديوان، إذ هو صورة جلية تعين الباحث والمؤرخ على فهم الأحداث والخُطُوب التى ألمَّت بالأندلس فى القرن الخامس الهجرى.

ثم أشار إلى وجوب العناية والاهتمام بالتراث العربى الأندلسى وإطالة الجهد فى تحقيقه ونشره. وفاءً بحق هذه الحقبة الزمنية من تاريخ العرب فى الأندلس، وما كان لها من الحصاد الفكرى اليانع، والجَنَى الثقافى العظيم.

ونقدم اليوم إلى القارئ الكريم هذا التراث الأندلسى.

فقد أخذت دار الكتب المصرية تعمل جاهدة على إحياء التراث العربى سواء فى ذلك ما كان منه فى المشرق أو الأندلس.

وقد رغب الأستاذ الجليل الدكتور محمود فهمى حجازى رئيس الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق والقومية فى أن تقوم هذه الدار بنشر هذا الديوان، أسوة بما تنشره الآن من آثار الأندلس. فله أخلص الشكر وصادق التقدير،،

٢ فبراير ١٩٩٧

حامد عبد المجيد

الفهــــرس

	الصفحة
المعتمد بن عباد — الملك	م(١)
« « — الشاعر	م(١٤)
من أقوال مؤرخيه	م(٣٣)
ديوانه	م(٣٦)
القسم الأول : عهد الإمارة والملك	١
غزل وخمر	١
وصف	٢٨
إلى أبيه	٣١
فى أولاده	٤٦
رسائل	٤٩
فخر	٦٥
رثاء	٦٨
تهكم	٧١
الإجازة	٧٤
المعميات	٧٧
عهد المحنة والأسر	٨٧
(ا) قبيل الأسر	٨٧
(ب) فى الأسر	٨٩
تعريف موجز	١١٩
ملحق	١٢٢
فهرس القوافى	١٢٤
فهرس الأعلام	١٣١
فهرس البلدان والأماكن	١٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المعتمد الملك

فرع من دوحة بنى عباد ، أسرة عربية من أعرق الأسر وأقواها وأثراها ، نزحت من العريش إلى الأندلس[1] فاستقرت فى غربيّه حينا ، ثم انتقلوا بعد إلى إشبيليةَ فاستوطنوها وعَمَرُوها ، وكانوا فيها أهل النباهة والشأن .

ظهر أمرهم فى عهد الدولة الأموية ، ولا سيما القرن الرابع فقد "تصدَّوا لخدمة الملوك من بنى أمية ، فصرفوهم فى الأمور العلية ، فكثرت فيهم الوجاهة والنباهة، إلى دولة الحكم المستنصر، ودولة ابنه هشام المؤيد، وحاجبه المنصور[2]".

كان صدر بيتهم ومؤسس مجدهم إسماعيل بن عباد ، من أهل الثروة والجاه واليسار ، كما كان من أهل الأدب والفقه . وكان الفقه فى الأندلس ممهدا للمراكز الرفيعة[3] . وقد اتصل إسماعيلُ هذا بالمنصور بن أبى عامر "فقدمه على خطة القضاء فاتصل استعماله إلى زمن انقراض الدولة الأموية . ."[4] واستطاع إسماعيل أن يؤلف بجوده وبرّه قلوب الكثيرين حوله .

هذا الصنيع وذلك النفوذ الذى كان يتمتع به ابنُ عباد، قد حمل القاسمَ بن حمّود، حينما استولى على إشبيلية — على أن يجعل عليها أبا القاسم محمدَ بن إسماعيل ، بعد

(١) ابن خلكان .
(٢) البيان المغرب ، ٣ : ١٩٣
(٣) نيكلسون ص ٤٢٠
(٤) أعمال الأعلام ٣ : ١٧٧

وفاة أبيه " فاستظهر به على مهمات تلك الحضرة ، واستنام إليه لمحله من الجلالة والأصالة فى النظر ، ووفور المالية " [1] .

فلما كان عصر الفتنة والمحنة ، استخلص محمدٌ لنفسه لقب السيادة على إشبيلية ، سنة ٤١٣ هـ وعاونه فى ذلك أصدقاؤه وأعوانه الأقوياء ، وظل يبسط سلطانه على نواح كثيرة ، بينما كانت الدولة الأموية تتصدَّعُ وتتمزق ، وتقترب من مصيرها المحتوم .

ولم يكد يموت أبو القاسم محمدُ بنُ إسماعيلَ بنِ عباد فى سنة ٤٣٣ حتى خلفه ابنه أبو عمرو عباد ، وتلقب بالمعتضد ، وهو والد المعتمد . وفى ذلك الوقت خبا نجم الدولة وانهار صرحها ، بعد أن عاشت قرابةَ أربعة قرون . وأخذ كل أمير يتنزى على ما تحت يده ، وكل وال يستقل بما ولى عليه . وبات التطاحن بين الأمراء الذين تقاسموا أشلاء الدولة قويا عنيفا . وكان المعتضد بن عباد — كما يقول ابن بسام — " قطب رحى الفتنة ومنتهى غاية المحنة " [2] .

كان أقوى هؤلاء الأمراء المتوثبين ، وأعظم هؤلاء الملوك المسمّين بملوك الطوائف . كان طاغية جبارا ، له سياسة أعيت على أنداده من ملوك الأندلس . وقد اتجهت مطامعه إلى غزو جيرانه ولا سيما البربر فى الجنوب والجنوب الشرقى من شبه الجزيرة ، ففتح ما يجاوره من البلاد ، وأخضع كثيرين لسلطانه ، ولم تخل أيامه فى أعدائه كما وصفه الدانى الشاعر " من تقييد قدم ، ولا عطل سيفه من قبض روح وسفك دم . حتى لقد كان فى داره حديقة لا تثمر إلا رءوسا ولا تنبت إلا رئيسا . فكان نظره اليها أشهى مقترحاته وفى التلفت إليها جعل جلّ بكره

---

(١) المصدر السابق ٣ : ١٧٨ (٢) الذخيرة ٢ : ١٠

وروحانه . فأبكى وأرّق ، وشتت وفرّق . ولقد حكى عنه من أوصاف التجبّر ما ينبغى أن تصان عنه الأسماع " [1] .

اشتبك المعتضد فى حروب طاحنة مع البربر أمراء غرناطة ومالقة وغيرهما فانتصر عليهم جميعا " وانضاف إلى بلاده عمل قرمونة وعمل الجزيرة . . . . كل هذا وهو قاعد فوق أريكته، منفذ للعظائم من جوف قصره [2] " فاتسع بذلك بلده، وكثر عديده وعدده وغدت إشبيلية أعظم قوة فى الأندلس .

ثم خلف المعتضد على عرش إشبيلية ابنه أبو القاسم محمدٌ سنة ٤٦١ وتلقب بالمعتمد على الله، والظافر بحول الله، والمؤيد بالله. وكان فتى فى الثلاثين من عمره حين أورثه أبوه ملك إشبيلية . وكان المعتمد أعظم ملوك الطوائف جميعا، كما كان زمنه " مشهورا بالراحات والآداب ، وأيامه موصوفة باخضرار الجناب [3] "

كان المعتمد وثيق الشبه بأبيه، لا يختلف عنه فى شئ إلا أنه كان دون أبيه شدة وعنفا . أما ماسوى هذا فكلاهما كان صورة لأمير عظيم من أمراء الفروسية، قد امتاز بالبأس والشجاعة وشدة الشكيمة ، وكلاهما قد اتصف بالسخاء والجود وسبوطة البنان وحسن الصنيع . وكلاهما اشتهر بالقريض وحسن النظم والحدب على أهل الأدب ، فقد نظر المعتضد إلى الأدب " قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان أدنى نظر بأذكى طبع ، وأعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحبير الكلام .

---

(١) الحلل السندسية ٣ : ٣٠٨ (٢) أعمال الأعلام ٣ : ١٨١

(٣) أعمال الأعلام ٣ : ١٨٩

وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة فى معان أمدته فيها الطبيعة وبلغ فيها الإرادة[1] " . كقوله :

شربنا ، وجفنُ الليل يغسلُ كُحلَه ... بماء صباحٍ والنسيمُ رقيقُ
معتّقــةً حمراءَ ، أما بخارها ... فضخمٌ ، وأما جسمها فدقيق

وكان له دار لا يدخل عليه أحد فيها غيرُ الشعراء ، وكان يوم الاثنين من كل أسبوع كما روى نفح الطيب .

ومن قبله كان أبوه القاضى محمدُ بنُ إسماعيل " يشارك الشعراء والبلغاء فى صنعة الشعروحوك البلاغة ، بسطا لهم وإقامة لهممهم ، ولما كان فى طبعه من ذلك[2] " .

وكذلك كان المعتمد كأبيه وجده شاعرا صادقا بكل ما توحى به هذه الكلمة من معان . خُلق ليقرض الشعر ، وليتغنى الإحساس بجماله . وكان شعره كما يقول المعجب كالحلل المنشرة . وقد اجتلب إليه من أعلاق الثناء ، ونثر عليه من درر الحمد ، ووضع فى يديه الكثير من حر القريض ، ولكن أحدا من الشعراء لم ينشده — كما قالوا — أشعر منه .

ولقد بلغ من حبه للشعر أنه كان لا يستوزر كاتبا ولا وزيرا ما لم يكن شاعرا . وقد سعى فى اجتذاب الشعراء والأدباء ، فوفدوا عليه ، ونالوا الجزيل من برّ يديه ، حتى صارت إشبيلية فوق علوها السياسى ، صاحبة العلو الثقافى أيضا .

---

(1) الذخيرة ٢ : ١٤ — (2) المصدر نفسه ٢ : ٣

والمعتمد وأبوه بعد هذا كله ، أو إلى جانب هذا كله ، قد عملا على تكوين دولة غدت أقوى دولة بالأندلس فى عهد الطوائف . وقد مهد المعتضدُ هـذه الدولة " فوق أطراف الأسنة، وصير أكثر شغله فيها شب الحروب، وكياد الملوك، واهراج البلاد وإحراز التلاد[1] "

وكذلك كان المعتمد ، فقد واصل الخطو على ما رسَمَ له أبوه . فكانت له حروب ، وعليه آخر الأمر خطرب . وقد استفحل أمره بغربى الجزيرة ، وعلت يده على معظم الأمراء ، خلا بنى ذى النون أمراءِ طُلَيطلة .

والمُلك إن لم تضمه يد قوية ، وتسهر عليه عيون يواقظ ، فهو صائر حتماً إلى زوال . ومن هنا كانت الصلة السياسية بين المعتمد وأبيه صلةَ جِدّ وعمل .

ذهب المعتمد إلى فتح مالقةَ ومعه أخوه جابر، ولم يمض قليل على فتحها ، حتى عاد باديس الصنهاجى فانتزعها ، واضطر المعتمد وأخوه إلى الفرار الى رُندة . وقد أثارت هـــذه الحادثة غضب المعتضد على ابنه ، فظل المعتمد يستعطف أباه ويعتذر عما فرط ، فى قصيدة رائية ، هى أطول قصائد المعتمد جميعا :

سكن فؤادك لا يذهبْ بك الفكَرُ ماذا يُعيد عليك البثُّ والحذرُ؟

وبغير هذا من الشعر كقوله يسترضيه :

مولاى أشكو اليك داءً أصبح قلبى به قَريحــا
إن لم يُرحه رضاكَ عنى فلست أدرى له مُريحَا
سُخطُك قد زادنى سقَاماً فابعث إلىَّ الرِّضا مَسيحَا[2]

(1) أعمال الأعلام ٣ : ١٨١ (٢) أنظر تمام الأبيات ص ٣٣

والأمر بين المعتضد وابنه المعتمد ،كالأمر بين المعتمد وابنه الراضى . فقد حدث أن هاجم العدو «لُورقة» فأمر المعتمدُ ابنهَ الراضى أن ينفر إليها ، فتباطأ وتشاغل بالقراءة ، فحجب المعتمد عنه وجه رضاه حينا ، ثم غلبت عليه عاطفة الأبوة فكان منه حنو ورضا عليه فكتب إليه مازحا :

المُلكُ فى طى الدفاتر فتخل عن قَود العساكر

كانت الإماراتُ الأندلسية قد أنهكتها الفتن ، وحطمتها الحروب ، وأوهنها مهاجمة القشتاليين فى الشمال . وقد ساعد المعتمدَ حسنُ الطالع فى الحروب التى شنَّها على الأدارسة ومن والاهم ، وعلت يده على كثير من الأمراء ، ولم يكن ثمة من يخشاه، خلا أمراءِ طُليطلة الأقوياء .

كان هؤلاء الأمراءُ ألدَّ أعداء المعتمد ، وأعظمهم خطرا عليه ، فكان عليه أن يسعى إلى إسقاطهم . وقد نشبت بينه وبين المأمون بن ذى النون وقائع ومعارك ، انتهت باستيلاء ابن ذى النون بمعاونة ابن عكاشة على قرطبة ، وقَتل سراج الدولة بن المعتمد . ولكن المعتمد ما لبث أن عاد سريعا ، فاسترد قرطبة منه ، وقتل ابن عكاشة انتقاما لابنه سراج الدولة . وكان استرداد قرطبة حادثا خطيرا فى تاريخ إشبيلية السياسى إذ كانت عاصمة الأندلس فى الدولة الأموية وطالما عزت على غير المعتمد من ملوك الطوائف . ولم يلبث المأمون أن تُرفى ذلك العام . فخلفه ابنه القادر بالله وكان ضعيفا ، فاهتبل المعتمد الفرصة وغزا طليطلة ، واستولى على كثير من أنحائها كمرسية وبلنسية .

كان يومئذ على قشتالة الفونسو السادس ، وكان أميرا وافر الحزم عظيم الدهاء . وكان صديقا لبنى ذى النون ، إذ عاونوه فى محنته حينما هزمه أخوه شانشو واستولى

على مملكته قبل ذلك بأعوام . ولكنه مع ذلك كان يضمر لهم سوءا و يتطلع إلى انتزاع ملكهم من بين أيديهم .

كانت هذه الصلة بين أمراء طليطلة وأمير قشتالة ، خطرا عظيما على المعتمد . فكان عليه أن يبعد هذا الخصمَ القوىّ عن بنى ذى النون ، إذا أراد أن يغنم سيادة إسبانيا الإسلامية . فسعى المعتمد إلى صداقة مَلك قشتالة ، و بعث إليه بأبرع ساسة الأندلس فى عصره ليفاوضه ، وهو ابن عمّار وزيرُه . واستطاع ابن عمار أن يعقد معاهدة سرية بين الفونسو والمعتمد ، تعهد فيها ملك قشتالة ، بمعاونة المعتمد على محاربة خصومه ، وتعهد المعتمد من قبله أن يترك الفونسو حرا فى محاربة طليطلة ، وأن يؤدى له مقادير كبيرة من المال .

وهكذا ضحى المعتمد بالمعقل الأكبر لإسبانيا الإسلامية ، وهى طليطلة . فلم يمض قليل حتى استولى ألفونسو على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ وسقطت بذلك مملكةَ بنى ذى النون ، وسقط أمنع حصن للمسلمين فى يد الإسبان . وكان سقوطها أمرا جالا فبكى عليها الأدباء ونعاها الشعراء . يدلنا على فداحة هذا الخطب تلك الأبياتُ التى نفس بها اليحصبى عن نفسه :

حُثّوا رواحلَكم يا آل أندلسٍ فما المُقَام بها إلا من الغَلَط
الثوبُ ينسل من أطرافه ، وأرى ثوبَ الجزيرة منسولا من الوسَطِ

* * *

وسرعان ما أدرك المعتمدُ سوءَ فعله ، وفداحة أخطائه . فصبّ جام غضبه على ابن عمار ، إذ هو الذى جر على المعتمد سوء العاقبة . ذلك أن حليفه بالأمس

ما كاد يفتح طليطلة ، حتى أخذ فى الاستيلاء على غيرها من الأراضى الواقعة على ضفتى نهر تاجة . ولم يقنع بهذا بل طالب المعتمدَ بِرَدّ ما كان تحت يده من حصون أخذها قبل من طليطلة .

وهنا جزع المعتمد، وشعر بالخطر المحدق بمُلْكه . فلم يمض قليل حتى أعان ألفونسو الحرب على المعتمد ، حين أبى أن يَرُدّ إليه شيئا مما أخذ ، وأحس أمراء الطوائف بأن هذا العدو سوف يجتاح ممالكهم ، وينتزى على مدنهم ، فأجمعوا أمرهم على أن يكونوا صفا ضد عدوهم ، واتفقت كلمتهم بعد الرأى والمشورة على أن يستصرخوا إخوانهم المسلمين فى إفريقية ، فاستغاثوا بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين — وكان المرابطون يومئذ فى أوج عزهم وسلطانهم — فاستجاب لندائهم ، وعبر بحر الزقاق إلى الأندلس فى جيش لَجِب ،وسارت قوى الإسلام تحت لواء يوسف والمعتمد إلى قتال الفونسو . والتقى الجمعان يوم الجمعة المشهور فى موضع قريب من بطليوس يعرف بالزلاقة [1] وفيه دارت المعركة وكانت الدائرة فيها على القشتاليين .

*
* *

عاد يوسف إلى بلاده بعد هذا اليوم المشهود ، ورأى عن كَثَب ما آل إليه حال البلاد ، وما كان عليه أهلها من شقاق وتنازع وتنافر ، الأمر الذى سيقرر مصيرهم على يد عدوهم الفونسو الرابض لهم بالمرصاد .

ولم يمض طويل ، حتى عاد يوسف إلى الأندلس للجهاد فى سنة ٤٨١ هـ ولكنه لم يقم بغزوات ذات خطر ، ثم رجع إلى إفريقيـــة وقد ازداد سخطا على أمراء

---

(١) انظر ما ذكرنا عن يوم الزلاقة مفصلا فى ص (١٧)

الأندلس جميعا . فلما كانت سنة ٤٨٤ هـ دخل الأندلس للمرة الثالثة وكان يُسِرُّ فى نفسه القضاء عليهم جميعا . فسار إلى غرناطة واستولى عليها ، ثم وزع جيوشه ، وفرق كتائبه ، على نواح أخرى من المدائن ، وركّز قوته الرئيسية نحو المعتمد .

ذهب جيش إلى قرطبة وكان عليها المأمون[1] بن المعتمد فدافع المأمون دفاعا مجيدا ، حتى قتل فى صفر سنة ٤٨٤ هـ . وانتصر جيش ثان ليوسف على الراضى[2] بن المعتمد فى (رُندة) ، وكان مصير الراضى كمصير أخيه المأمون .

وسار جيش ثالث ، بقيادة سير بن أبى بكر إلى إشبيلية ، حيث المعتمد ، فتأهب للدفاع ، واستنجد بحليفه الفونسو فأمده بجيش ، ولكن المرابطين سرعان ما أدركوه فهزموه قريبا من قرطبة ، فأجبر المعتمد على أن ينزل بقواته كلها فى الميدان لقتال المرابطين ، ولكن المرابطين كانوا أكثر عددا فهزموه ، وارتد المعتمد إلى إشبيلية وامتنع بها . الى أن كان يوم الثلاثاء منتصف رجب سنة ٤٨٤ هـ فدخل البلد على المعتمد " فبرز من قصره متلافيا لأمره ، عليه غلالة ترف على بدنه ، وسيفه يتلظى فى يده ، فلقى على باب من أبواب المدينة فارسا مشهورا ، فرماه الفارس برمح التوى على غلالته ، وعصمه الله تعالى منه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس ، فشقه الى أضلاعه ، فخر صريعا سريعا . قال الدانى : فرأيت الفاتحين عندما تسنّموا الأسوار تساقطوا منها وبعدما أمسكوا الأبواب تخلوا عنها[3] . . . . "

---

(١) أنظر ترجمته ص ٦٨

(٢) « « ص ٦٨

(٣) من وصف الدانى وكان من شهود ذلك اليوم وانظر نفح الطيب ٤ ١١٠ (مصر) .

ثم عاد المعتمد إلى قصره، واستمسك به يومه وليلته، مانعا لحوزته دافعا للذل عن عزته وفى ذلك يقول :

إن يسلب القومُ العدا مُلكى وتُسلمنى الجمُوعْ
فالقلبُ بين ضُلوعه لم تُسلم القلبَ الضُّلوع

والتوت الحال بالمعتمد بعد هذا اليوم أياما " إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرون من رجب، فعظم الخطب فى الأمر الواقع ، واتسع الخرق فيه على الراقع، ودُخل البلد من جهة واديه، وأصيب حاضره بعادية باديه بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه ، وترامیه على الموت بنفسه . مالا مزيد عليه ولا انتهى خلق اليه . فشنت الغارة فى البلد، ولم يُبق فيه على سبد لأحد ولا لبد ، وخرج الناس عن منازلهم ، يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سُكارى وما هم بسكارى[1] ..."

* * *

فى هذه الحرب المستعرة خرج ابنُ عباد وابنه مالك ، فقتل مالك بين يديه ، وكوثر المعتمد فأغمد سيفه . ونزل من القصر إلى الأسر، وامتدت اليه يدعدوه العاتى، فوضع الثقاف فى يده ، وحمل هو وآله فى سفائن أعدت لهم ، وسارت بهم فى الوادى الكبير فى طريقهم إلى أغمات ، وقد احتشد الناس على ضفتى النهر يودعون راعيهم بالبكاء ويذرفون على أيامه سخين الدموع. وكان الدانى الشاعر ممن شهد تلك الساعات الفاصلة فى تاريخ إشبيلية فأثارته تلك الخطوب التوالى ، وحركن عنده لواعج الحزن والأسى واللوعة، فرثى ملك سيده ومولاه بداليته المشهورة :

تبكى السماءُ بدمع رائحٍ غادى على البهاليل من أبناء عبادِ

---

(١) من وصف الدانى أيضا وانظر النفح (٤ ١١٠ مصر)

وفيها يقول :

نسيتُ الا غَدَاة النهر كونَهم	فى المنشآت كأموات بألحاد
والناسُ قد ملأوا العبرين واعتبروا	من لؤلؤ طافيـاتٍ فوق أزباد
حُطّ القناع فلم تُستر مُخدَّرةٌ	ومُزقت أوجه تمزيق أبراد
حان الوَداع فضجت كلُّ صارخة	وصارخ من مُفداةٍ ومن فَادى
سارت سفائنهم والنوحُ يتبعُها	كأنها إبلٌ يحدو بها الحَادى
كم سال فى الماء من دمعٍ وكم حملت	تلك القطائع من قِطعات أكباد[1]

***

كان نزول المعتمد وآله بطنجة فأقام بها أياما ثم حُملوا بعد ذلك إلى أغمات ، ولم يكن معه يوم نزوله بطنجة أكثر من ثلاثين مثقالا ، بعث بها إلى الحصرى الشاعر جزاء مدحه إياه . واستقبل المعتمد الأسر هو وآله راضيا بالقضاء مستسلما . وفى هذا السجن المروّع ، عامله يوسف أقسى معاملة ، دون مراعاة لسابق جلاله .

رأت زوجه السجن الموحش المخيف ، بعد ذلك القصر الشامخ المنيف ، فارتاعت لهول ما رأت وقالت " يا سيدى لقد هُنَّا هُنَا "

فقال المعتمد مصوِّرا هذا الألمَ الدفين ، والاستسلام للقضاء :

قالت : لقد هُنَّا هُنَا	مولاى ، أين جاهُنَا
قلتُ لهَا : إلى هُنا	صيَّرنا إلهُنَا[2]

(١) تمام الأبيات فى المراكشى (المعجب ٧٩ ، ٨١) وانظر الحلل السندسية (٣ : ٣٠٣) والقلائد ص ٢٢

(٢) انظر الأبيات فى قافية النون فى شعره فى الأسر .

ولبث المعتمد فى السجن بضع سنين ، لقى فيها ضروب العنت وصنوف المهانة . ضيق عليه وعلى آله حتى ما كان يطلق إليهم ما يكفيهم وبلغ من حاله أن إحدى كرائمه استدعت غَزْلا من الناس تَسدُّ بأجرته بعض حَالها ، فأدخل عليها غَزْلٌ لبنت عريف شرطة أبيها . وكان منظر بناته يذكى جذوةَ الأسى والحزن ، حين دخلن عليه يوم العيد فى أثمال رثَّة ، حفاةَ الأقدام حاسراتِ الرءوس .

وظل المعتمد مغلول الساقين حينا ، ثم فكَّت عنه القيود ، وإلى ذلك يشير الدانى فى مميته التى قالها فى المعتمد وهو بأغمات سنة ٤٨٦ هـ ومطلعها :

تنشَّق بريحان السلام ، فانما أفض به مسكا عليك مختما[1]

فيقول فيها :

قيودُك ذَابت فانطلقتَ لقد غدت قيودك منهم بالمكارم أرحما
عجبتُ لأَن لَانَ الحديد وأَن قسوا لقد كان منهم بالسريرة أعلما
سينجيك من نجَّى من السجن يوسفاً ويُؤويك من آوى المسيحَ بن مريما

ولكن هذه الحال لم تدم طويلا ، فما لبث أن أعيد عليه الثقاف إثر ثورة ابنه عبد الجبار ، وبلوغ خبرها إلى يوسف ، فبقى المعتمد مصفدا إلى أن توفى سنة ٤٨٨ هـ

*
* *

كانت مأساة المعتمد حادثا جللا ، حرك أنفس الشعراء ، فكانت لهم فيه قصائد هى أنات وحسرات ، ونفثات وزفرات . وكان ممن وفى له من شعراء دولته ابن حمديسَ والدانى وكان هذا أغزرهم مادة فى المعتمد وقد نظم فى دولته وأيامه

(١) انظر القصيدة فى الحلل السندسية ٣ : ٣٠٦

وأسره كتابا سماه (نظم السلوك فى وعظ الملوك) كما رثى دولته ابن عبد الصمد فى قصيدة دالية قالها يوم العيد الذى توفى المعتمد فى شهره ومطلعها :

ملك المـــلوك أسامعٌ فأنادى أم قد عدتك عن السماع عوادى

وقد رأينا من المؤرخين من يأخذ على يوسف فعله بالمعتمد، يقول ابن الأثير : فقد أبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفس ولؤم قدر[1] "

وعلى الرغم مما أصاب المعتمد وآله ، فان المحنة لم تروّع قلبَه ، ولم يطأطئ هامته لقسوة يوسف ، فما ذل ولا استعطف ، ولا استرحم ولا استشفع ، ولا ارتاع ولا رُوِّع ، وإنما كان كالبدر ، لم يحجب ضياؤه ، ولم يُستر سناؤه . وكان عزاؤه فى محبسه ، وغذاؤه الروحى فى أسره ، إنما هو الشعر يبثه كامن حزنه ، وينفث فيه ذاهب مجده، ويتوجع فيه لمصرع بنيه وفلذة كبده . ولعل أصدق ما يصور نفسه فى سجنه قولُه :

تُؤمـــل للنفس الشجيـة فَـرجةً وتأبى الخطوبُ السودُ إلّا تماديا
لياليك من زاهيك أصفى صحبتَهـا كذا صحبتْ قبـلُ الملوكُ الليالـيا
نعـيمٌ وبؤسٌ ، ذا لذلك نـاسخٌ وبعـدهما نسخ المنَـايا الأمانيا

هذه لمحة سريعة، وتأملات عابرة، تثيرها فى النفس محنة المعتمد . فلنودع المعتمد الملك ، لنستقبل بعد المعتمد الشاعر .

---

(١) الكامل (١٠ : ١٣)

المعتمد الشاعر

(١)

ولد فى مهـاد الملك ، وعاش أميرا فملكا ، لم تدفعه الحـاجةُ إلى الارتزاق بشعره ، وإنّما كان كالعصفور الغَرِد ، يمتلىء شعورا بالحياة ، فيُغنّى ، وتبهجه آيات الجمال ، فيصدح ، لا يُضطرّ إلى أن يُلبس عواطفه غير لَبوسها .

وقد رأى والده فيه بادرة هذا النّبوغ ؛ فشجّعه على أن يقرض الشّعر ؛ وعرف الابن فى أبيه حبّه للشّعر ، فاتّخذه فى رسائله إليه ، يمدحه آنا ، ويستعطفه حينا ، ويعتذر إليه مرّة ؛ ويطلب منه بعض إنعامه تارة أخرى ، كما سترى ، علما منه بمـا للشّعر من تأثير فى نفس أبيه ، وبأنّه جدير أن يبلغ به ما يريد .

وأغرم المعتمد بالشّعر ، حتى كان يكتبه فى رقعة الدّعوة إذا دعا ، ويستجيز به الشّعراء ، وكثيرا ما كان يرسل إلى وزرائه ، وندمائه وشعرائه ، رسائل بالشعر ، بدل منثور الكلام .

(٢)

وكان شعره صورة للحياة التى عاشها ، فى عهد الإمارة والملك ، حياة التّرف والجلال معا ، تراها ممثّلة فى قوله :

ولقد شربت الرّاح يسطع نُورها ... واللّيل قد مدّ الظّـلام رداءَ
حتّى تبدّى البدرُ فى جوزائه ... ملكا تناهى بهجة وبهـاء
لمّـا أراد تنزّهـا فى غربه ... جعل المظـلّة فوقه الجوزاء
وتناهضت زهر النّجوم يحفّـه ... لألاؤهـا ، فاستكمل الآلاء

وترى الكواكب كالمواكب حوله   رفعت ثريّاهـا عليـــه اواء
وحكيتُه فى الأرض ، بين مواكب   وكواعب ، جمعت سنًا وسنـاء
إن نشّرت تلك الدروع حنادسًا   ملأت لنا هذى الكئوس ضياء
وإذا تغنّت هـــذه فى مِزْهَرٍ   لم تأل تلك على التّريك غناء

فحياته كما ترى، بين راح يسطع نورها فى ظلمة الليّل ، تحت أضواء بدر ، يملأ الكون بهاء وبهجة ، تحفّ به النجوم المتلألئة ، كما تحفّ الرّعيّة بمليكها ، وهنا يعقد موازنة بين نفسه فى الأرض ، والبدر فى السّماء ؛ فهو فى ملكه بين مواكب من الجند أو بين كواعب أتراب ، يصدحن بأعذب الموسيقى ، وأرقّ الغناء .

وملهاة أخرى كانت أثيرة لديه ، تلك هى ملهاة الصّيد . يطلب من والده حينا أن يأذن له بساعة ينفقها فيه ، ويرى فى ذلك منّة من والده عليه ؛ وحينا يرسل إلى أبيه يحدّثه عن ساعة قضاها فى الصّيد والقنص .

وكان للأحداث السّياسيـــة صداها فى شعره ، ولعلّ أعظم تلك الأحداث استيلاؤه على قرطبة ، وهو حادث ملأ نفسه زهوا ، وربّما أفعم قلبه بالأمل فى أن يوحّد الأندلس العربية، تحت رايته ويقيم فى البلاد دولة بنى عبّاد ، ولا جرم، فقد كانت قرطبة عاصمة الأندلس كلّها ، يوم كان الحكم العربىّ مزدهرا بتلك الديار ويُبين المعتمد عن هذا الزهو ، وذلك الأمل ، فى قوله :

من للملوك بشأو الأصيد البطلِ ؟!   هيهـــات جاءتكمُ مَهديّة الدّولِ
خطبت قرطبة الحسناء إذ مَنَعت   من جاء يخطبها بالبيض والأسَلِ

عِرْسُ الملوك لنا فى قصرها عُرُسُ   كلّ المـلوك به فى مأتم الوجل
فَراقبوا عن قريب ، لا أبالـكُمُ   هجوم ليثٍ ، بدرع البأس مشتمل

ومن أعظم هذه الأحداث أيضا ، تلك المعركةُ الّتى دارت رحاها يوم العروبة ، بين المعتمد بن عبّاد والمرابطين وأمراء الأندلس من ناحية ، وبين ألفونس السّادس ملك قشتالة من ناحية أخرى ، وعرفت فى التّاريخ بمعركة الزّلّاقة . وقد تحدّث عن صبره على أوار تلك المعركة . والمؤرّخون يروون بلاءه فيها ، ويثنون على شجاعته واستبساله . وقد سجّل ذلك فى حديثه عن ابنه أبى هاشم ، حين ذكره ورحى القتال دائرة ، إذ يقول :

أبا هاشم هشمتنى الشّفـارْ   فللّه صبرى لذاك الأُوارْ!
ذكرت شُخيصك ما بينهـا   فلم يَثننى حبّـه للفرار

ويظهر أنّه كان رقيق المعاملة لوزرائه وندمائه عظيم التّواضع لهم . كتب مرّة الى ذى الوزارتين أبى الوليد بن زيدون وكان المعتضد قد أمر أن يكون مجلس الوزير دون مجلس ولده المعتمد :

أيّها المنحطُّ عنّى مجلسـا   وله فى النّفس أعلى مجلسِ
بفؤادى لك حبّ يقتضى   أن تُرى تُحملُ فوق الأرؤس

ولذا لا نعجب أن يجيبه ابن زيدون ، فيصفه بأنّه مَلِكٌ ، مالك بالبرّ رقّ الأنفس . كما كان يحبّ أن يأخذ الأمور بالرّفق واللّين ، ويدلّ على ذلك شعره الّذى أرسل به إلى ابن عمّار ، عقب نزوع هذا إلى أن يستأثر بمرسية :

متى تلقنى تلق الّذى قـد بلوته   صفوحا عن الجانى ، رءوفا على الصّحب

كان شعر المعتمد أميرا وملكا ، يفيض بالبهجة ويغمره السّرور . حتى إذا ماقلب الدّهر له ظهر المجنّ، فهاجمه يوسف بن تاشفين حليفه بالأمس، انقلبت تلك الحياة الراضية حياة بؤس وشقاء، ولعلّ من أوائل الكوارث التى نزلت به، وفاةَ ولديه اللّذين كانا على قرطبة ورُندة، عند ما أغار عليهما جيش يوسف . وهنا يبدأ عهد المحنة ،ويفيض شعره الباكى الحزين، حتّى إذا تمّ أسره ،مضى الشّعر يروى إحساساته الحزينة،وآلامه الدّفينة،وذكرياته المؤلمة،وخواطره القاتمة، كما سنرى .

(٣)

كان الغزل أهمّ أغراض شعر المعتمد ، فى عهد الإمارة والملك ، وهو غزل حقيقىّ ،تحدّث فيه عن عواطفه،فى حال الرّضا والغضب، والقرب والبعد.وأظهر ما فيه أنه غيرُ وقف على واحدة، بل هن جوار وزوجات ، عرفنا منهنّ جوهرة ، وسِحر ، ووداد ، وقمر ، وزوجه اعتماد وأم الربيع ، يقول فى الأولى منهنّ :

سرورنا دونــكُم ناقـــص والطّيب لا صاف ، ولا خالصُ
والسعدُ إن طالعنا نجمــه وغبت ، فهو الآفل النّاكص
سّمــوك بالجــوهر مظــلومةً مثــلك لا يدركه غائص

ويقول فى الثّانية :

عفــا الله عن سِحرٍ على كلّ حالة ولاحو سبت عمّا بها أنا واجدُ
أسحر،ظلمت النّفس،واخترت فرقتى فجمّعت أحزانى وهنّ شوراد
وكانت شجــونى باقترابك نُزّحا فهاهُنَّ لمــّا أن نأيت ، شواهد

م(١٧)

ويقول فى ثالثتهن :

اشرب الكأس فى وداد ودادك وتأنس بذكرها فى انفرادك
قمر غاب عن جفونك مرآ ه ، وسكناه فى سواد فؤادك

ويقول فى زوجه اعتماد أمّ الرّبيع :

تظنّ بنا أمّ الرّبيع سآمةً ألا غفر الرّحمنُ ذنبا تُواقعُه
أأهجُرُ ظبيا فى فؤادى كِناسُه وبدرَ تمام فى جفونى مطالعه
وروضةَ حُسن أجتنيها ، وباردا من الظّلم ، لم تحظر علىّ شرائعه
إذًا عدمت كفّى نوالا تفيضه على معتفيها ، أو عدوّا تقارعه

وفيها يقول :

بكرت تلوم ، وفى الفؤاد بلابل سفها ، وهل يَثنى الحليم الجاهلُ
يا هذه ، كفّى فانّى عاشق من لا يردّ هواى عنها عاذل
حبّ اعتماد فى الجوانح ساكن لا القلب ضاق به ، ولاهو راحل
يا ظبية ، سلبت فؤاد محمّد أَوَ لم يُروّعك الهزبر الباسل
من شكّ أنّى هائم بك مغرم فعلى هواك له علىّ دلائل:
لون كسته صفرة ، ومدامع هطلت سحائبها ، وجسم ناحل

وهذا الغزل الذى لا يقتصر على واحدة ، يدلّ على أنّ صاحبه مغرم بالجمال ، يُعجب به أينما كان ، لا كهؤلاء المحبّين الذين لا يرون الجمال الّا ممثلا فى واحدة ، وليس حبّه حبّا عذريّا ، يقنع من الحب بالذكرى وطيف الخيال ،

فلا ترى فى غزله صوفيّة ، ولكنّه غزل دائم الحديث عن لذة المتعة بالجمال ، فتسمعه يقول :

الصّبح قد مزّق ثوب الدّجى ... فمزّق الهمّ بكفّى مهّا
خذ باسمها من ريقها خمرة ... فى لون خدّيها ، تجلى الأسى

ويخاطب من يحب قائلا :

متى أداوى يا فدا ... ك السّمعُ منّى والبصر
ما بفؤادى من جوىً ... بما بفيك من خَصَر

ويقول :

وشادن أسأله قهوة ... فجاء بالقهوة والورد
فبتّ أسقى الرّاح من ريقه ... واجتنى الورد من الخدّ

حتى فى النوم ، عندما يزوره طيف من يهوى ، لا يقنع إلّا بالحبّ الواصل ولا يرضيه إلّا أن يظفر فى النّوم ، بما كان يظفر به فى اليقظة فهو يرسل إلى من يحبّ رسالة ، منها :

إنّى رأيتك فى المنام ضجيعتى ... وكأنّ ساعدَكِ الوشيرَ وسادى
وكأنّما عانقتنى ، وشكوتِ ما ... أشكوه من وجدى ، وطول سهادى

والمعتمد يسجّل فى شعره ما ظفر به من متع حسّيّة بالجمال ، ويحنّ إليها إذا نأى عنها . وشعره فى الشّوق إلى الجمال المفارق بارع قوى . ومن ذلك ما كتب

به إلى ابن عمّار، يذكر عهده بشلب، ولياليه السعيدة بها ، ومعاهد لهوه فيها ، فقال :

ألا حيّ أوطانى بشلب ، أبا بكر ... وسلهنّ : هل عهد الوصال كما أدرى
وسلّم على قصر الشّراجيب عن فتى ... له أبدا شوق إلى ذلك القصر
منازل آساد ، وبيض نواعم ... فناهيك من غِيل ، وناهيك من خِدر
وكم ليلة قد بتّ أنعم جُنحها ... بمُخْصبة الأرداف ، مجدبة الخصر
وبيض ، وسمر ، فاعلات بمهجتى ... فعال الصّفاح البيض والأسَل السمر
وليل بسدّ النّهر لهوا قطعته ... بذات سوار ، مثل مُنعطف النهر
نضت بردها عن غصن بان منعم ... فيا حسن ما انشقّ الكمام عن الزّهر
وباتت تُسقّينى المدام بلحظها ... فمن كأسها حينا وحينا من الثغر

وأغلب الظّنّ أن ميدان حبّه كان جواريَه وحظاياه ، وهؤلاء كنّ قريبات منه ؛ ولهذا لا تحسّ فى شعره لوعة ولا حرمانا ، فهجر الجوارى دلال ينتهى بوصل ؛ وخصام لا يلبث الصلح أن يعقبه ، والفراق إذا كان اليوم ، فنى غد اللّقيا والوصال ، وهو حين يغالى فى التّعبير عن أساه للهجر والفراق ، مدلّل لمن يهواه . وكثيرا ما صوّر لنا مداعبات جرت بينه وبين من يهوى ؛ ولعلّ من أرقّها تلك التى صورها ، وقد جرى بينه وبين جاريته جوهرة عتاب ؛ فكتب اليها يسترضيها فأجابته برقعة لم تعنونها باسمها ، فقال :

لم تَصْفُ لى بعد ؛ وإلّا فلِمْ ... لم أر فى عنوانها جوهره
دَرَت بأنّى عاشق لاسمها ... فلم ترد للغيظ أن تذكره
قالت : إذا أبصره ثانيا ... قبّله ؛ والله لا أبصره

وللمعتمد شعر بعث به إلى أبيه ، تلمس فيه ما كان يحمله الأمير الفتى لوالده من إكبار وإجلال . فهو حينا يمدحه مدحا يرفعه إلى التفرد بالمجد والسيادة ، إذ يقول له :

ألا يا مليكا ، ظلّ فى الخطب مفزعا ويا واحدا قد فاق ذا الخلقَ أجمعا

وحينا يرسل إليه يسأله بعض نعمه ؛ أو يطلب إليه منّا ؛ أو يشكره على كثرة ما أولى وأنعم . ومن ذلك انّ أباه أرسل إليه فرسا أصدأ ، فكتب إليه المعتمد :

نوال جزيل ، يُبهر الشكر والحمدا وصنع جميل ، يوجب النصح والودّا
لقد جدت بالعِلقِ الذى لو أُباعُه بذلت ، ولم أُغبن ، به العيشة الرغدا
جواد أتانى من جواد تطابقا فيا كرم المُهدِى ، ويا كرم المهدَى
وكم من يد أوليت موقعها ندٍ لدى ، ولكن أين موضع ذا الأصدا
لعلّىَ يوما أن أوفّى حقّه فأُنعلهَ ممن عصى أمرك الحدا

فاذا ما غضب الوالد على الأمير ، وجد هذا من شعره وسيلة يستلّ بها هذا الغضب . ولعلّ أكبر قصيدة فى الديوان تلك التى بعث بها إليه ؛ وقد خرج من مالقة منهزما أمام باديس ، وقد تصرّف فى هذه القصيدة تصرّفا بارعا ، فبدأها بالحديث إلى نفسه ، يطلب منها أن تهدأ ، وتستقرّ ، إذ لا فائدة فى البكاء ، ولا خير يرجى من الحزن والألم ، ما دام القدر قد عاق عن بلوغ الأمل ، فيقول :

سكّن فؤادك ، لاتذهب بك الفِكَر ماذا يعيد عليك البثّ والحذر ؟ !

ثم ينتقل انتقالا طبيعيّا ، إلى مدح والده مدحا رائعا قويا ، بدأه بقوله :

سميذع ، يهب الآلاف مبتدئا ويستقل عطاياه ، ويعتذر

ويمزج المدح بالاعتذار إليه ؛ طالبا منه أن يبقى عليه ولا يُوهنه ، فهو العدّة فى حوادث الدّهر ، وهو النّاب والظّفر وقت الشدّة . ويظهر ممّا وصف به المعتمد نفسه معتذرا إلى والده حين يقول :

فالنّفس جازعة ، والعين دامعة ... والصّوت منخفض ، والطّرف منكسر
وحلت لو نا وما بالجسم من سقم ... وشبت رأسا ، ولم يبلغنى الكبر
وذُبت إلّا ذَمَاءً فىَّ يمسكه ... أنّى عهدتك تعفو حين تقتدر

أنّ وقع الهزيمة كان شديدا على نفس أبيه ، ونكاد نلمح أنّ والد المعتضد قد أرجع سبب الهزيمة إلى انصراف ولده المعتمد إلى اللّهو والغناء ، والخمر والنّساء ومن أجل هذا بذل المعتمد جهدا كبيرا فى أن يبرئ نفسه منها ، منحيا على قوم ذوى دغل ، لعلّهم هم الذين نقلوا إلى أبيه ، أمورا لا ترضيه ، فقال المعتمد يتنصّل :

لم أوت من زمنى شيئا ألذ به ... فلست أعهد ، ما كاس ، ولا وترُ
ولا تملّكنى دلٌّ ، ولا خفرٌ ... ولاسبى خلدى غنج ، ولا حور
ما تركى الخمر من زُهد ولا ورع ... فلم يفارق لعمرى سنّى الصّغر
وإنّما أنا ساع فى رضاك ، فإن ... أخفقت فيه فلا يفسح لى العمر

* * *

وبرغم شهرة شعراء الأندلس بوصف الطّبيعة ، وغرام المعتمد بها ، لم نجد له كثيرا من الشّعر فيها ، الّا حديثا عرضيّا عن البدر الذى كان يساهره ، وهو

هانىء بشرب الرّاح ، أو الشمعة التى سهرت معه كذلك وهو يشرب الخمر أيضا ، وقد رأى فى نورها ولهبها ممثّلا لجمال ساقيه ، ونار غرامه ، إذ يقول :

ساهرتها ، والكاس يسعى بها من ريقه أشهى من الكاس
ضياؤها — لا شك — من وجهه وحرّها من حرّ أنفاسى

ويقف ابن عبّاد فى وصفه للخمر ، عند حدّ ما تراه العين ، غير متجاوز ذلك إلى الحديث عن وصف أثرها فى نفسه كما ترى ذلك فى قوله :

لو زرتنا لرأيت ما لم تعهد ذوبَ اللّجين خليط ذوب العسجد

ولعل المعتمد قد شغله الجمال النّاطق ممثّلا فى المرأة ، عن الجمال الصّامت ممثلا فى الطّبيعة .

ولقد وصف المجّن عندما طلب اليه أبوه وصفه ، وكان قوىّ الخيال عندما ربط بين منظر المجنّ ، وقد أصبح يحكى السّماء بما رُسم عليه من نجوم ، وبين بُعد أن تناله طوال الرّماح ، إذ قال :

مجنّ حكى صانعوه السّماء لِتَقصر عنه طوال الرّماح

* * *

وله قصيدتان تهكّميتان ، بلغ فيهما مبلغا كبيرا من الإتقان والإجادة ، أمّا أولاهما فتلك الّتى ردّ بها على ابن عمّار ، عندما طمع فى أن يستأثر ببلنسية ، فقال ابن عمّار

فى ذلك شعرا يشيد فيه بمجده ومجد أسرته ، ولم يكن ابن عمّار من أسرة رفيعة الذّرى ، بل كان خامل البيت ، كما يقول المؤرخون ، فما هو إلّا أن قال :

كيف التّفلّت بالخديعة من يَدَى رجل الحقيقة ، من بنى عمّار

حتّى أنشد المعتمد قصيدة يعرّض فيها بابن عمّار وآبائه ، ويذكر نشأتهم ومنبتهم ، ويسخر من فخره بهم ، فى أسلوب تهكّمىّ لاذع ، بدأه بقوله يكمل قصيدة ابن عمّار :

الأكثرين مسوّدا ومملكا ومتوّجا فى سالف الأعصار

والثانية بعث بها إلى ابنه الرّاضى ، عندما أرسل إليه يأمره بالخروج لمحاربة عدوّ هاجم " لُورقة " ، فأظهر الرّاضى تمارضا ، وانصرافا إلى القراءة ، فكتب إليه قصيدة تهكّميّة بدأها بقوله :

الملك فى طى الدفاتر فتخلّ عن قَوْدِ العساكر

* * *

وللمعتمد فخر بنفسه وبأسرته ، فى ثنايا قصائد غزله ، ورسائله إلى أبيه ، ولم ينشئ قصيدة للفخر قصدا ، إلّا تلك التّى أوحى إليه بها فتحه قرطبة ، وإلا أخرى يفتخر فيها بالجود ، وإلّا ثالثةً أنشأها فى الأسر وسوف نعرض لها .

ولم يَرْثِ غير بنيه الذين قتلوا ، وهم يدافعون عن مدنهم ، وهو حين يرثى يندفع حينا وراء حزنه ، حتّى ليرى من الغدر ألّا يفيض جفنه عليهم ، ويرى نفسه أحق بالبكاء ، من تلك القُمْريّة التى أثارها فقد إلفها :

فما لى لا أبكى ؟! أم القلب صخرةٌ وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر
بكت واحدا ، لم يشجها غيرُ فقده وأبكى لآلاف عديدهـــم كـثر
غَدَرت إذًا ، إن ضنّ جفنى بقطره وإن لؤمت نفسى فصاحبها الصّبر

وحينا تتغلّب العاطفة الدّينيّة لديه ، فيخفّف ذلك من وقع المصاب عليه :

مخفف عن فؤادى أنّ ثكلكما مثقّـــل لىَ يـــوم الحشر مـيزانا

أمّا عندما كان فى الأسر ، فإنّه وجد فى رثاء بنيـه وبكائهم متنفّسا عن آلامه ووجد فى الجزع عليهم تعبيرا عن يأسه وتبـديد أحلامه . ولا ريب أنّ حاله فى الأسر ، هو الّذى أوحى إليه بهذا البيت الباكى :

يقولون : صبرا ، لاسبيل إلى الصّبر سأبكى ، وأبكى ، ما تطاول من عمرى

وهو فى هذه القصيدة يرى الطّبيعة تشاركه فى الحزن ، فالبدر والنّجوم الزّهر فى مأتم كلّ ليلة ، والغمام يبكى مشاركة له فى مصـابه ، والمعتمد يناجى ولديه ، محدثا لهما عمّـا خلّفه بُعـدُهما فى القلوب ، من جرُوح ونُدوب ، وما استحال إليه مجده بَعدَهما ، من تبـدّد وانهيار ، حتّى إنّهما لو عادا لآثرا الموت على أن يرياه مقيّدا مأسورا :

فلو عدتما ، لاخترتما العود فى الثرى إذا أنتمـا أبصرتُمـانى فى الأسر

* * *

أمّا شعره فى الأسر فكان سلواه ، يشكو له بثّه ، ويندب إليه حظّه ، ويحدّثه بآلامه ، ويبكى به مصيره ومصير ملكه .

وقد دافع المعتمد عن عرشه ، وخرج بسيفه يذود عن حماه ، ولم يستمع إلى رأى ناصحيه الّذين أشاروا عليه بأن يتّخذ خضوعه للغيرين سياسة ينتهجها ، عساهم يبقونه على العرش فأبى ، ورأى استلاب عرشه ، أفضل من النّزول عن شرفه .

قالوا : الخضوع سياسةٌ فليبد منك لهم خضوع
وألذّ من طعم الخضو ع على فمى السّمّ النّقيع
إن يسلب القوم العدا مُلكى ، وتُسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضّلوع
لم أُستلب شرفَ الطّبا ع ، أيُسلب الشّرفُ الرّفيع ؟!

واستقبل المعتمد أسره ، لا بالثّورة والتّهديد والوعيد ، ولكن بالبكاء والنّحيب ؛ فلم نر فى شعره حديثا عن أنصار سيثورون ، وإنما رأينا استسلاما لآسريه ، وبكاء على ماضيه . خرج به يوسف بن تاشقين إلى العدوة بعد أن خلعه ، فوصل إلى موضع منها ، وأهل البلد خارجون للاستسقاء فقال :

خرجوا ، ليستسقوا ، فقلت لهم: دمعى ينوب لكم عن الأنواء
قالوا : حقيق ، فى دموعك مقنع لكنّها ممزوجة بدماء

ولم نره طول مدّة مقامه فى الأسر متوعّدا ولا ثائرا ، بل يائسا مستسلما لم يمرّ به أمل العودة إلى سابق مجده إلاّ مرورا عابرا ، كما يمرّ به فى حلم إذ يقول :

فيا ليت شعرى ، هل أبيتنّ ليلة أمامى وخلفى روضة وغدير
تُراه عسيرا ، أم يسيرا منناله ألا كلّ ما شاء الإله يسير

* * *

ولم نحسّ بروح الثّورة فى شعر المعتمد وهو أسير إلّا عندما بلغه نبأ ثورة ابنه عبد الجبّار، فهنا يذكر المعتمد السّيف الّذى طال رقاده فى جفنه ، والرّمح الّذى عطش إلى شرب الدّماء ، والجوادَ وقد حيل بينه وبين ارتقاب غرّة فى العدو فينادى قائلا :

ألا شرفٌ يرحم المشرفى ... مما به من كمات الوتين
ألا كرم يُنعش السّمهرىّ ... ويشفيه من كلّ داء دفين
ألا حنّة لابن محنيّة ... شديدِ الحنين ضعيف الأنين

بل إنّ ذكرى مجده ومجد آبائه الغابر ، فى القصيدة الفخريّة الّتى أنشأها فى الأسر، لم تكن لتثير فيه الطّموح إلى إعادة هذا المجد ، بل يسلّى نفسه فيها بقوله :

وإذا ما اجتمع الدّين لنا ... فحقير ما من الدّنيا افترق

فالسّائد فى شعره روح الاستسلام ، لجور الدّهر وظلم الأيّام . يوصّى نفسه بالصّبر ، ويدعوها إلى تحمّل الكُرَب ، ويوطّنها على الكره ، عسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيقول :

اقنع بحظّك فى دنياك ما كانا ... وعزّ نفسك ، إن فارقت أوطانا
فى الله من كلّ مفقود مضى عوضٌ ... فأشعر القلب سلوانا وإيمانا
أما سمعت بسلطان شبيهك قد ... بزّته سود خطوب الدّهر سلطانا
وطّن على الكره وارقب إثره فرجا ... واستغنم الله تغنم منه غفرانا

كان هذا الأسر القاسى ، وما عومل به من إذلال فيه والموازنة بين حاضره وماضيه مدعاة لإثارة شجونه وإدماء عيونه . وها هو ذا يصف لنا عيدا حزينا

أقبل عليه فى منفاه، وقد دخلت عليه بناته، يلبسن ثيابا أخلاقا، وفى أيديهنّ المغزل، يغزلن به للنّاس، حتّى لمن كان لهنّ بالأمس خادما، فثارت فى خاطره أطياف السّعادة الماضية، فتمزّق قلبه، وقال :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة ... يغزلن للناس، ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن، حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطّين، والأقدام حافية ... كأنّها لم تطأ مسكا وكافورا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا ... فردّك الدّهر منهيّا ومأمورا

وكثيرا ما كان يتذكر قصوره بالأندلس، فيحنّ إليها، ويحسّ كأنها تبكى أيّامه الزّاهرة، ولياليه المتلألئة، ويشعر على البعد بما ارتدته من الذّلّ والوحشة بعده.

ومما ضاعف أساه، هذا القيد الّذى غلّت به قدماه، وشعره ملىء بالحسرة الّتى تمزق قلبه لهذا القيّد الثّقيل، الذى يراه يتلوّى كالحيّة الرّقطاء، ذا أيد وبطش كالأسد. ومن أروع شعره فى ذلك حديثه إلى القيد، وقد دخل عليه ابنه أبو هاشم فارتاع له :

قيدى، أما تعلمنى مسلما ؟! ... أبيت أن تُشفق، أو ترحما
دمى شراب لك، واللّحم قد ... أكلته، لا تهشم الأعظما
يبصرنى فيك أبو هاشم ... فينثنى القلب، وقد هشّما
ارحم طفيلا، طائشا لبه ... لم يخش أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيّاتٍ له مثله ... جرّعتهنّ السّمّ والعلقما

ولم يكن هناك بصيص من أمل فى النّجاة والحرّيّة ينفذ إلى قلبه. وكان الهمّ يحطّمه، والأسى يرهنه، واليأس يعصر قلبه، فكان يشعر بدنو أجله، بل كان

يتخيّل هذا اليوم قد حلّ، ولعله كان يراه حدّا لآلامه وأحزانه، فرثى نفسه بأبيات أوصى أن تكتب على قبره، لم يُشر فيها لأسره، وكأنّه بذلك يريد أن يمحو من ذاكرة التّاريخ ما بلاه من الأسر والشّقاء. حيث يقول:

قبر الغريب، سقاك الرّائح الغادى ... حقّا ظفرت بأشلاء ابن عبّاد

بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت ... بالخصب إن أجدبوا بالرّىّ للصّادى

نعم هو الحقّ، وافانى به قدر ... من السّماء، فوافانى لميعاد

ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه ... أنّ الجبال تهادى فوق أعواد

فلا تزل صلوات الله دائمة ... على دفينك لا تحصى بتعداد

* * *

وقبل أن نختم هذا الفصل، نشير إلى صلة المعتمد بالشّعراء فى منفاه، فقد استقبله فى طنجة الحصرىّ الشّاعر، وأقبل يلحّ عليه فى العطاء، ورفع إليه شعرا، فبعث اليه المعتمد بأكثر ما كان معه من مال قليل، واعتذر اليه بقطعة من الشّعر، فأخذ الحصرىّ ما أرسل اليه، ومضى مستقلا للعطاء، ولما سمع الشّعراء بعطاء المعتمد، أقبلوا عليه يسألونه فعجب من أمرهم وقال:

سألوا العسير من الأسير، وإنّه ... بسؤالهم لأحقّ منهم، فاعجب

لولا الحياء وعزّة لحميّة ... طىّ الحشا، لحكاهمو فى المطلب

ووفى له ثلاثة من شعرائه كما رأينا، هم أبو بكر الدانى، وابن حمديس، وابن عبد الصّمد. وأبى كرم المعتمد إلّا أن يرسل إلى أولهم بالقليل الذى كان يملكه، فأبى الدّانى أن يأخذ على وفائه أجرا. أمّا الثّانى فقد أقبل يريد زيارته، فصرفه بعض الخدم، فأرسل المعتمد اليه قصيدة يعتذر فيها، ولعلّه كان يرجو أن يرى

فى شاعره صورة من مجده الغابر ، وأثرا من آثار عظمته وسلطانه . وأما ابن عبد الصّمد ، فانّه مضى إلى قبر المعتمد بعد صلاة العيد ، مع ملأ من النّاس ، يتوجّعون له ، ويترحّمون عليه ، ثمّ أنشد قصيدة طويلة، أوّلها :

ملك الملوك ، أسامع ، فأنادى أم قد عدتك عن السّماع عوادى
لما خلت منك القصور، فلم تكن فيها ، كما قد كنت فى الأعياد
أقبلت فى هذا الثّرى لك خاضعا وتخذت قبرك موضع الإنشاد

وخرّ يبكى ويعفر وجهه فى تراب قبره ، فأبكى من كان معه جميعا .

(٤)

أهمّ ما يتّصف به شعر المعتمد، الوضوح الذى يدلّ على وضوح التجربة لدى الشاعر ، فلا تعثر فى شعره على غموض ولا التواء . ومما ساعد على هذا الوضوح الوحدة فى شعره. فكلّ مقطوعة أو قصيدة تتخذت عن خاطر مرّ بنفس المعتمد، وتتضافر الأبيات فى إيضاح هذا الخاطر ، وتسير فى اتساق ونظام.

وكثير من شعره فى عهد الإمارة والملك ، مقطوعات ، تدلّ على انفعال يكفى هذا القدر فى تصويره ، مع قدرة المعتمد على الإطالة إذا أراد .

أما موسيقاه فمناسبة لهذه الانفعالات ، ولذا ترى أكثر أوزان الغزل مُطْرِبة سارّة سريعة ، كقوله :

يابديع الحسن والإحسان، يابدر الدياجى
ياغزالا ، صاد منى بالطّلى ليث الهياج
قد غنينا بسنا وجهك عن ضوء السّراج

وترى شعره فى الأسر يلتزم البحور الطّويلة، التى تدلّ على التأمّل والأناة ،

لا على الثّورة والجموح . وليس فى شعره فى هذا العهد موسيقى تشعر بالسرعة ، إلّا قطعته التى قالها إثر ثورة ابنه عبد الجبّار ، فهى من المتقارب السّريع الحركة ، لأنّها تعبّر عن انفعال سريع ، وحركة تضطرم فى صدره ، كما اختار البحور الطويلة كذلك فى رثائه .

وتشبيهات المعتمد مألوفة ، ولكن يزيّنها مايضفيه على الشّعر من تناسب كقوله :

ياهلالا ، إذا بدا لى تجلّت عن فؤادى دجُنّة الكربات

فأنت ترى التناسب بين الهلال والدّجنّة . وحينا يفصّل التّشبيه فى الغزل زيادة فى بعث اللّذّة بتصوير من يحب حين يقول :

ياهلالا حسن خد ، يارشا غنج لحظ ، ياقضيبا لين قَد

ولا يتّخذ المعتمد الغزل مقدّمة لقصائد مدحه لأبيه ، كما كان يفعل الشّعراء السّابقون .

ويميل المعتمد إلى الجمال الطّبيعىّ فى شعره ، فقلّ أن يلجأ إلى الصّناعة ، وإن كنت لا تعدم أن ترى هنا جناسا ، وهناك طباقا ، وهنالك لفّا ونشرا وغيرها ، ولكنّه مع ذلك يحسن الصّوغ ، فلا تحسّ بنبو ولا قلق ، وإن كنت لا أنكر أثر الكلفة فى قوله ، يدعو بعض ندمائه إلى الشّراب :

أيّها الصّاحب الّذى فارقت عينى ونفسى منه السّنا والسّناء
نحن فى المجلس الذى يهب الرّاحة والمسمع : الغنى والغناء
نتعاطى التى تنسّى من اللّذّة والرّقّة الهوى والهواء
فأته تلف راحة ، ومحيّا قد أعدّا لك الحيا ، والحياء

وزادت الصّناعة من جمال قوله ، يتحدّث عن قمريّة تنوح :

وناحت وباحت واستراحت بسرّها وما نطقت حرفا يبـــوح به سرّ

ولم تغضّ الصناعة من جمـال مقطوعته الغزليّة التّى جعل فى أوّل كل بيت منها حرفا من حروف زوجه اعتماد .

والمعتمد دقيق ذو ذوق مرهف فى اختيـار ألفاظه التى توحى إلى القارئ بخاطره ، وخذ مثلا لذلك كلمة الأوار ، الّتى توحى إليك بلهيب النّار ، وقد دلّ بها على نيران المعركة ، وكلمـــة شخيص المصغّرة ، وهى توحى بضآلة جسم ابنـه أبى هاشم وهـذا فى البيتين اللّذين أوردناهمـا فى معركة الزّلاقة . وتأمّل كلمـة " مسيحا " فى قوله يسترضى أباه :

سخطك قد زادنى سقاما فابعث إلىّ الرّضا مسيحا

لترى ما توحى به إلى نفسك من مقدرة المسيح عيسى على الإبراء ، وما فى الكلمة نفسها من دلالة على مسح آثار الدّاء . وهو يصف اللّيل بالاعتكار ، ويضيف الوسواس للحلىّ ، ويصف النّفس بالنرجسىّ فى قوله :

فلاقتـــك بالنّفس النرجسىّ وراقتك بالملبس العسجدى

وكلّ ذلك دليل الدقّة فى اختيار الألفاظ .

وقوافى الشّاعر محكمة فى أبياتها ، لا تشعر فيها بقلق ولا اضطراب ، بل هى مستقرّة مطمئنّة ، تشعرك بقدرة الشّاعر على تذليلها .

وبعد فإنّ على شعر المعتمد بن عباد مسحة من الحسن ، تأسر النّفس ، وتملك الحسّ ، لصدق العاطفة التى انبعث عنها ، وجمال الأسلوب الّذى صيغ فيه

من أقوال مؤرّخيه

ممـا قاله الفتح بن خاقان فى كتابه قلائد العقيان[1]:

"... وكانت حضرته مطمحا للهمم، ومسرحا لآمال الأمم، وموقفا لكلّ كمىّ، ومقذفا لذى أنف حمىّ، لم تخل من وفد، ولم يصح جوّها من انسجام رفد، فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكماة، ومشاهير الحماة، أعدادٌ يغصّ بهم الفضا، وأنجاد يُزهى بهم النّفوذ والمضا، وطلع فى سمـائه كلّ نجم متّقد، وكلّ ذى فهم منتقد، فأصبحت حضرته ميـدانا لرهان الأذهان، وغاية لرمى هدف البيان، ومضمارا لإحراز خصل، فى كلّ معنى وفصل، فلم يرتسم فى زمانه إلّا بطلٌ نجد، ولم يتّسق فى نظامه إلّا ذكاءٌ ومجد، فأصبح عصره أجمـل عصر، وغدا مِصره أكمل مصر، تُسفح فيه ديم الكرم، ويُفصح فيه لسانا سيف وقلم، ويفضح الرّضا فى وصفه أيام ذى سلَم..."

ومـا قاله ابنُ بسّام فى الذّخيرة[2]:

"وقد كان متمسّكا من الأدب بسبب، وضاربا فى العـلم بسهم، وله شعر كما انشقّ الكمام عن الزّهر، لو صدر مثله ممّن جعل الشّعر صناعته، واتّخذه بضاعته، لكان رائعا معجبا، ونادرا مستغربا... يَرمى فيصيب، ويَهمى فيصُوب... والعجب من المعتمد أنه مَرى سحابه فى كلتا حاليه فصاب، ودعا خاطره فأجاب، ولا تراجع له من طبع، [فى الملك] ولا بعد الخلع، بل يومه فى هذا الشأن دهر، وحسنته فى هـذا الدّيوان عشر، فان أجاد فمـا أولى، وإن قصّر فأمره واضح".

(1) ص ٤

(2) المخطوطة المغربية (٢ : ١٠)

ومما قاله المراكشى فى المعجب[1]:

"وكان المعتمد هذا يُشبّه بهارون الواثق بالله، من ملوك بنى العبّاس: ذكاء نفس، وغزارة أدب، وكان شعره كأنّه الحلل المنشّرة، واجتمع له من الشّعراء وأهل الأدب، ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس. وكان مقتصرا من العلوم على علم الأدب وما يتعلّق به وينضم إليه وكان فيه مع هـذا من الفضائل الذّاتية ما لا يحصى: كالشجاعة والسّخاء والحيـاء والنّزاهة، إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشّريفة. وفى الجملة فلا أعلم خصلة تحمد فى رجل إلّا وقد وهبه الله منها أوفر قسم، وضُرب له فيها بأوفى سهم. وإذا عدّت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها".

ومما قاله ابنُ خلّكان فى كتاب وفيات الأعيان[2]:

"قال أبو الحسن علىّ بن القطّاع السّعدى، فى كتاب "لمح الملح" فى حقّ المعتمد: "إنه أندى ملوك الأندلس راحة، وأرحبهم ساحة، وأعظمهم ثمـادا، وأرفعهم عمادا، ولذا كانت حضرته مَلقى الرحال وموسم الشـعراء، وقبلة الآمال ومألف الفضلاء، حتّى إنه لم يجتمع ببـاب أحد من ملوك عصره من أعيان الشّعراء، وأفاضل الأدباء، ما كان يجتمع ببابه، وتشتمل عليه حاشيتا جنابه".

ومما قاله لسان الدين بن الخطيب فى كتابه أعمال الأعلام[3]:

"كنيته أبو القاسم، وهو الجواد الشّجاع البليغ، ذو الأخبار الشّهيرة الذّكر، والأنبـاء المأثورة فى الدّهر، قال ابن الصّيرفىّ: "المعتمد على الله محمد بن عبّاد

---

(1) ص ٧١

(2) حـ ٢ ص ٤١٢

(3) ٣ : ١٨٣

نسيجُ وحده فى الجود ، وأصلبُ نظرائه مكسِرَ عود ، فذّا فى البلاغة ، طرفا فى الشّعر والكتابة ، بارع النّظم والنّثر ، كثير الأدب ، جزل الألفاظ ، كثير المعانى ، حسن المآخذ ، لدنَ معاطف الكلام ، رقيق الحاشية ، كثيف المتن ، كثير البديع ، رائق الديباجة ، لائق الاستعارة ، حسن الإشارة ، جمّ التّوليد ، لم يُنشده من الوزراء والشّعراء أشعرُ منه ، على كثرة ما اجتاب إليه ، من أعلاق الثّناء ، ونثر عليه من درّ الحمد ، ووضع فى يديه من حرّ القريض" .

ومما قاله صاحب قلادة النحر[1] :

"كان المعتمد ملكا جليلا ، وعالما ذكيا ، وشاعرا محسنا ، وبطلا شجاعا ، وجوادا ممدّحا ، كان بابه محطّ الرّحال ، وكعبة الآمال" .

---

(١) القسم الثانى من الجزء الثانى المصور بدار الكتب ص ٦٢٣

ديوانه

لم يدوّن المعتمد شعره فى ديوان ، ولم يجمعه أحد ممّن جاء بعده ، وإنما كان شعرُه متفرّقا منثورا ، فى صحائف التّاريخ وكتب الأدب ، ماخلا مجموعا صغيرا ملحقا بديوان ابن زيدون ، لا يجمع إلّا النّزر اليسير من شعره .

وكما أنّ شعره لم يُجمع من قبل فى سفر واحد ، كذلك لم يقم أحد بتحقيقه وتلك كانت مهمتنا : فجمعنا ما استطعنا جمعه من شعره ، وحقّقناه تحقيقا فنّيا ، وأرّخنا بعض قصائده ، بربطها بحوادث التّاريخ ، فمهّدنا بذلك سبيل البحث للأديب ، عند ما يريد دراسة فنّ الشّاعر ، ومؤرّخ التّاريخ الإسلامىّ ، حين يستشهد بالشّعر على أحداث التّاريخ .

وقد استقينا هذا الدّيوان من الأصول الأساسيّة الآتية :

(١) أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الإسلام ، (للسان الدين بن الخطيب) الجزء الثالث الذى نشره ليفى بروفنسال (الرّباط سنة ١٩٣٤)

(٢) بدائع البدائه لابن ظافر (ط مصر سنة ١٢٧٨ هـ)

(٣) البيان المغرب لابن عذارى . نشره ل . بروفنسال سنة ١٩٣٠ الجزء الثالث .

(٤) تاريخ أبى الفداء (ط باريس سنة ١٩٣٠)

(٥) تاريخ ابن الوردى (طبع مصر سنة ١٢٨٥ هـ)

(٦) تاريخ بنى عبّاد . (Historia Abbadidarum)

وهو مجموع ما كتبه الفتح بن خاقان فى المطمح والقلائد ، وابن بشكوال فى الصّلة، وابن بسّام فى الذخيرة . والعماد فى خريدة القصر. الخ جمعه دوزى (ط سنة ١٨٤٦) .

(٧) تزيين قلائدالعقيان: شرح لمحمد بن قاسم بن زاكور، على قلائد العقيان.

نسخة خطية ، بالمكتبة التيمورية رقم ٣١٣ تاريخ

(٨) الحلل الموشية لابن الخطيب (ط تونس) .

(٩) الحلة السيراء لابن الأبار نقلا عن دوزى فى كتاب (تاريخ بنى عباد) .

(١٠) خريدة القصر للعماد الأصفهانى . المجلّد الحادى عشر. من مصوّرة بدار الكتب ٤٢٥٥ أدب ، منقولة عن باريس .

(١١) ديوان ابن زيدون : نسختان خطيتان بدار الكتب احداهما رقم ٤٩٦ أدب والثانية رقم ٥٥٥ أدب .

(١٢) ديوان ابن حمديس (ط روما) ١٨٩٧

(١٣) الذخيرة ، فى محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسّام :

الجزء الثّانى من نسختين خطّيتين بالقلم المغربى بدار الكتب ، إحداهما رقم ٢٢٦٧ ورمزنا اليها برقم ا .

والثّانية رقم ٣٧٦٢ ورمزنا اليها برقم ب .

(١٤) رايات المبرزين ، لعلى بن موسى الشهير بابن سعيد. تيمور، خط ٢٥٣٣

(١٥) روض القرطاس ، لأبى الحسن علىّ بن أبى زرع طبع أو بساله سنة ١٨٤٣

(١٦) شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلى — الجزء الثالث . (ط مصر سنة ١٣٥٠) .

(١٧) عقد الاجياد فى الصافنات الجياد ، لعبد القادر الجزائرى (طبع سنة ١٩٢٣) .

(١٨) الغيث المسجم فى شرح لامية العجم لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، المتوفى سنة ٧٦٤ (ط مصر) .

(١٩) قلائد العقيان للفتح بن خاقان — (ط بولاق سنة ١٢٨٣) .

(٢٠) قلادة النحر لأبى محمد محمد الطيب بن عبد الله ، من علماء القرن العاشر الهجرى .

نسخة مصورة بدار الكتب رقم ١٦٧ تاريخ .

(٢١) الكامل لابن الأثير — الجزء العاشر . (ط ليدن سنة ١٨٥٣)٠

(٢٢) مجموع من شعر المعتضد بن عباد وابنه المعتمد ملحق بديوان ابن زيدون رقم ٤٩٦ — أدب بدار الكتب .

وهو مخطوط ، يبدأ شعر المعتمد فيه من صفحة ١٩٤ إلى صفحة ٢٢٠ ورمزنا اليه بالمجموع ا

(٢٣) مجموع من شعر المعتمد والمعتضد ملحق بديوان ابن زيدون رقم ٥٥٥ أدب بدار الكتب وهو مخطوط أيضا ورمزنا اليه بالمجموع (ب) .

(٢٤) المرقصات والمطربات لأبن سعيد . (ط مصر سنة ١٢٨٦) .

(٢٥) المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية . نسخة مصورة بدار الكتب رقم (ز) ١٠٣١٠ عن نسخة بالمتحف البريطانى .

(٢٦) مطمح الأنفس للفتح به خاقان ، صاحب قلائد العقيان (ط القسطنطينية سنة ١٣٠٢) .

(٢٧) المعجب للمراكشي (ط ليدن سنة ١٨٨١) .

(٢٨) نفح الطيب لسان الدين بن الخطيب (ط مصر سنة ١٢٧٩ وط أوربا).

(٢٩) وفيات الأعيان لابن خلكان (ط مصر) .

وثمة كتب أخرى رجعنا إليها فى تحقيق الديوان منها :

الإحاطة فى أخبار غرناطة .

الأعلام للزركلى .

تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ، ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان .

تراجم إسلامية ، للأستاذ محمد عبد الله عنان .

الحلل السندسية ، لشكيب أرسلان .

دواوين بعض الشعراء .

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، لابن أبى أصيبعه .

المغرب لابن سعيد ، مخطوط (دار الكتب تاريخ ١٠٣)

أسبانية الإسلامية (دوزى) . (Spanish Islam.)

تكملة المعاجم العربية (دوزى) . (Supplément aux Dictionnaires Arabes)

تاريخ الأدب العربى (نيكلسون A. Literary History of the Arabs.